البس لكل حالة لبوسها

اتضح من مقالة سابقة موضوعها الفرد والجماعة ان الجماعة تؤثر في الفرد كما تؤثر فيه الوراثة الطبيعية وهذا كان رأي الناس عموماً حتى قيل

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

ولكن لما ثبت فعل الوراثة الطبيعية وكثر البحث فيها وعُلِم ان اخلاق الانسان موروثة من والديه واسلافهم ضعف الاعتقاد بتأثير العشراء والوسط الذي يقيم فيه الانسان حتى ان فيلسوفاً مثل جان جاك روسو بنى كتابه في التربية والتهذيب على مراقبة ظهور الاخلاق في الولد وتعهدها بما يقوي الحسن منها ويُضعف القبيح واهمل امراً آخر وهو تأهيل الولد للنجاح في المعيشة الاجتماعية التي يوجد فيها حتى يلبس لكل حالة لبوسها ويجري مع العمران في سيره

كنت منذ خمس سنوات أو ست تدخل مكاتب كبار المحامين في هذا القطر فترى اشتغالهم كلهُ محصوراً في درس الدعاوي واستنباط الادلة على صحة دعاوي موكليهم . واذا سمعت كلمة "سمسار" قطب من سماعها جبينك حاسباً اياها من القاب العار والازدراء وكنت ترى السمسار يأتي مكتب المحامي الكبير ويستخدمهُ في كتابة شروط التفويض بالبيع ويعطيه اجرتهُ جنيهاً او جنيهين وهو (اي السمسار) يأخذ اجرتهُ بمئات الجنيهات ان لم يكن بالالوف. فلما رأى المحامون ذلك جعل بعضهم يحترف السمسرة مع المحاماة فوجدوا ان ربحهم منها اضعاف اضعاف ربحهم من المحاماة فلبسوا لهذه الحالة الجديدة لبوسها وجروا معها ولولا ذلك لبقي ربحهم اقل من القليل بعد ان غلت المعيشة وتضاعفت النفقات كلها

وكنت منذ عشر سنوات ترى الشبان النابغين يتهافتون على مناصب الحكومة في الادارة او القضاء وقد حظرت عليهم الحكومة مشترى الاطيان في المديريات التي يقيمون فيها ومعاطاة الاعمال كلها ولكنهم لما رأوا ان مكاسب اخوانهم المحامين والمشتغلين بالزراعة او بالتجارة تفوق مكاسبهم وان نفقات المعيشة زادت جداً جعلوا يستعفون من خدمة الحكومة الواحد بعد الآخر واضطرت الحكومة ان تنظر في زيادة رواتبهم كلهم لكي تبقي الاكفاء في خدمتها

وما حدث في القطر المصري يحدث في كل البلدان السائرة في سبل الارتقاء فان رجالها لا يكتفون بما وجدوا عليه او وجدوا فيه بل يطلبون مجاراة ابناء عصرهم والاَّ اضطروا ان يتأخروا عنهم

بعث الي احد الفضلاء بالاس كتاب مدرسة هارفرد الاميركية الجامعة عن سنة ١٩٠٥ فرأيتُ في مقدمتهِ امرًا من هذا القبيل رأيتُ ان اساتذة تلك المدرسة الشهيرة يتقاضون رواتب قليلة جدًّا في جنب الارتقاء العظيم الذي ارتقتهُ اميركا وعلى غلاء المعيشة فيها فراتب الاستاذ الذي من الدرجة الاولى خمسة آلاف ريال في السنة اي الف جنيه لا غير والذي من الدرجة الثانية او الثالثة اقل من ذلك اي ٣٦٠٠ ريال في السنة او ستين جنيهًا في الشهر ورواتب المدرسين اقل من ذلك حتى لقد بلغ راتب المدرس اقل من خمسة عشر جنيهًا في الشهر. ولما رأى رئيس المدرسة واصدقاؤها ان هذا الاجحاف في حقوق الاساتذة يفضي الى استعفاء الكثيرين منهم او يقعون فيها مضطربي البال لان رواتبهم لا تقوم بمعيشتهم وحفظ كرامتهم في الهيئة الاجتماعية التي هم فيها اكتتبوا بمجموع مبلغ كبير من المال ينفق ريعهُ في زيادة اجورهم فاكتتب المتخرجون من المدرسة واصدقاؤهم باكثر من مليوني ريال لهذا الغرض النبيل وريع هذا المال يكفي لزيادة الرواتب كلها عشرة في المئة

وهذا عين ما تعملهُ الحكومة المصرية الآن من قبيل امتنانها بزيادة رواتب مستخدميها على اختلاف درجاتهم ناظرةً في ذلك الى غلاء المعيشة بسبب ازدياد الثروة العمومية والاولى ان يقال بسبب كثرة الذهب فانهُ لما كثر رخص فظلا ما يشترى بهِ بالنسبة اليهِ اي انهُ لما رخص الجنيه لم يعد يساوي اردبًّا ونصفًا من الحنطة كما كان قبلاً بل صار يساوي اردبًّا واحدًا فقيل ان ثمن الحنطة غلا والحقيقة ان الذهب رخص فالموظف الذي كان يتقد عشرين جنيهًا في الشهر كانت اجرتهُ هذه تساوي ثلاثين اردبًّا من الحنطة فلما رخص الذهب صارت العشرون جنيهًا تساوي عشرين اردبًّا فقط وقس على ذلك ثمن اللحم والخضر واجر البيوت وما اشبه فانها كلها زادت خمسين في المئة ثمنًا او اجرة. فهذه الحالة الجديدة الطارئة على البلاد يجب ان تتغيَّر الاجور بموجبها

وهذا التغيُّر في اثمان الحاجيَّات انما هو جزء صغير من مجمل التغيُّر العمومي في كل المعايش والآراء والافكار فانك كيفما التفت لا ترى الاَّ تغيرًا سريعًا جاريًا مع الزمان فان المصري الذي كان يركب فرسًا مطهمًا او بغلة زرزورية او حمارًا حصاويًا وينفق مئات الجنيهات ثمنهُ وثمن عدتهِ صار يركب مركبة مصنوعة في باريس او لندرا يجرها فرسان من افراس روسيا او المجر وقد ابدلها الآن بالاتوموبيل الغازوليني او الكهربائي. والذي كان يلبس جبة وقفطانًا وعمامة وطربوشًا مغربيًّا صار يلبس سترةً وبنطلونًا وطربوشًا اسلامبوليًّا ولا يبعد ان يلبس غدًا بريطةً. ولا غرابة في شيء من هذا التغير بل الغرابة في عدم مجاراتهِ والوقوف على حالة

واحدة لان التغير ناموس طبيعي وهو ناموس التقدم والارتقاء وعدم التغير جمود وموت

وقد تغيرت ملابس النساء كما تغيرت ملابس الرجال وتغيرت ملابس الاولاد ذكوراً واناثاً وتغير اثاث البيوت واشكال بنائها وموائد الطعام وادواتهُ حتى في اقصى بلاد الفلاحين

وشمل التغير لغة الكتَّاب فبعد ان كانوا يتباهون بالالفاظ المطلقة الماضي بعدًا عن الكلمات المبتذلة ويجتنبون الالفاظ الاجنبية مهما كانت شائعة فلم تعجبهم كلمة بلون فسموهُ منطاداً ولا ميكرسكوب فسموهُ مجهراً ولا تلفون فسموهُ مقولاً اضطروا بحكم ناموس التغير ومراعاة احوال الزمان ان يعدلوا عن الاسماء التي وضعوها الى الاسماء الافرنجية الشائعة كما عدلوا عن لبس الطربوش المغربي الى لبس الطربوش الاسلامبولي وعن لبس الحذاء الاحمر الى لبس الحذاء الاسود وعن لبس الشروال الواسع الى لبس البنطلون الضيق وسموا هذه الآلات بالاسماء التي وضعها لها صانعوها كأنها اعلام لها لئلا يخالفوا الجاري فيتعبوا ذهن القارىء والسامع . بل ان اسلوب الانشاء قد تغير كلهُ . اكتب للناس جريدة سيارة باسلوب من الانشاء مثل اسلوب ابن خلدون في مقدمته او مثل اسلوب الصابي في رسائله فلا تجد لها مئة مشترك ولا تبيع منها مئة نسخة

وشأن من يحاول الرجوع الى اسلوب الانشاء القديم شأن من يحاول ارجاع الناس الى ازياء الملابس القديمة فلو قام امهر خياط في هذه العاصمة وخاط مثل اجمل الثياب المقصبة التي كانت شائعة في زمن المماليك وكان امراؤهم يفاخرون بها ودعا الناس الى لبسها وباعهم اياها باخس ثمن او اعطاهم اياها مجاناً ما رأيت عشرة من التجار او من ارباب المناصب في الحكومة يلبسونها لا لانها غير جميلة لذاتها بل لان عهدها مضى ولم تعد شائعة

وهذا كلهُ لا يمنع ان يقوم الناس يشذُّون عن الجماعة ويغيرون الاسلوب الجاري ويختطون لانفسهم خطة جديدة يجرون عليها في الآراء او في الاعمال كما فعل دارون وسبنسر في الآراء العلمية والفلسفية وكما فعل نبوليون في الفنون الحربية ولكنهم لا يفلحون الاَّ اذا اختمرت العقول وتهيأت النفوس لقبول الانقلاب الذي يحدثونهُ وكان في ما يأتون بهِ حقائق باهرة لا يسع الناس اغفالها طويلاً تكون من نوع التغير الطبيعي الذي يحدث من وقت الى آخر وبيق لان ما يأول اليهِ اصلح من غيرهِ للبقاء . ولكن هؤلاء الشواذ نوابغ نادرون يعدون على الاصابع والجمهور الذي منهُ الجماعة لا يسعهُ الاَّ ان يراعي احوال الزمان والمكان ويلبس لكل حالة لبوسها